

# أين الشارع العربي

الانتفاضة الفلسطينية المباركة تمرّ في أقسى الظروف وأدقّها وأخطرها. إسرائيل قطعت أوصال الساحة الفلسطينية فلم يُعدّ ثمة اتّصال مُباشر بين الضفة الغربية وغزّة، لا بل لم يُعدّ ثمة تواصل بشري بين مُدن فلسطين وقراها ومخيماتها. الطرق مزروعة بالحواجز العسكرية الإسرائيلية. والحصار الخانق مفروضٌ على مناطق برُمّتها، وبعضها بات يفتقر إلى المواد الغذائية والدواء وسائر أبسط المتطلّبات المعيشية. وإسرائيل تُعين في قيادات الانتفاضة قتلاً، وتداهم الأحياء والمنازل فتلقي القبض على شُبّان الانتفاضة وتُنكّل بهم وتسومهم أشنع أشكال التعذيب، وهي تقصّف وتنسف البيوت فوق رؤوس أصحابها.

كل ذلك في غفلةٍ من الضمير الإنساني العالمي، وفي غياب صرخات الاحتجاج والاستنكار من دول الغرب التي ترفع شعارات الحرية والعدالة وحقوق الإنسان، وتُصنّف دول العالم ومجتمعاته تبعاً لذلك، وتمارس شتى صنوف الضغط على السلطة في الدول التي تمارس أساليب هتك القيم الإنسانية والحضارية في مجتمعاتها أو هي تسمح بذلك أو تغضي عنه. ولم نُعدّ نسمع أصوات الإدانة المألوفة حتى من التنظيمات الدولية والهيئات التطوعية التي نذرت نفسها لرصد حال حقوق الإنسان وسائر القيم في مختلف أرجاء الدنيا. أما الدول التي أعلنت الحرب على الإرهاب في العالم أو تجنّدت لمكافحته، فلم تُبدِ جِراكاً أمام مشهد أشنع الأعمال الإرهابية التي تقترفها إسرائيل يومياً وبصورةٍ منهجيّةٍ في حربها على الإنسان الفلسطيني.

أما الواقع الأشدّ إيلاماً أمام هذا المشهد المُفجع فهو غياب، حتى لا نقول غيبوبة الشارع العربي. في بداية عهد الانتفاضة الفلسطينية انتفض الشارع العربي إنتصاراً لها. هبّت التظاهرات الصاخبة في كل زاوية من زوايا العالم العربي دعماً للشعب الفلسطيني في ثورته على الاحتلال والظلم والاستعباد. وأمام مشهد الطفل محمد الدرة يحتضر في حضن أبيه، إذ اغتالته رصاصة إسرائيلية مُجرمة، احتدمت صيحات الألم بين حشود المتظاهرين العرب في كل مكان. كان هذا في بداية الانتفاضة المباركة. أما اليوم فالسؤال الذي يلحّ على ضميرنا ووجداننا هو: أين هو الشارع العربي، ماذا دهاه، وماذا حلّ به؟ صمته يصمّ الآذان. سكونه يزلزل النفوس. غيابه يخطف الأبصار.

آثرت للوهلة الأولى ألاّ أحاول لهذا الواقع الأليم تفسيراً، لعلمي أنّ في التفسير تبريراً. ولا أقبل لهذا الواقع تسويغاً أو تبريراً. ولكن السكوت عن هذا الواقع هو أيضاً بمثابة المشاركة في حالة الصمت المُطبق، وهذا ما يجب ألاّ نرضاه لأنفسنا.

أبسط التفسيرات يعزو هذه الظاهرة إلى القمع الذي تمارسه أكثر الأنظمة العربية على المواطن. بعبارة موجزة، فإنّ الجماهير العربية لم تخرج إلى الشارع استنكاراً لما يتعرّض له الشعب الفلسطيني من عنت، وانتصاراً للانتفاضة الفلسطينية لأنها مقموعة، لأنّ السلطة في البلدان العربية تردعها عن ذلك، ربما كي لا تتحوّل التظاهرات إلى احتجاج على السلطة نفسها لأنها لا تقوم بما يتوجّب عليها كما ينبغي لها أن تفعل لنصرة الشعب الفلسطيني، علماً بأنّ الحكومات العربية قلّما تقوم بمبادرات فاعلة لاستنهاض العزيمة العربية أو لتحميل دول القرار في العالم، ولا سيما الولايات المتحدة الأميركية، في انحيازها السافر والصارخ للعدوان الإسرائيلي في فلسطين، مسؤولية ما يدور من جرائم على يد إسرائيل في حقّ الشعب الفلسطيني. ومجال العمل على هذا الصعيد مُتاح وواسع على مستوى الأمم المتحدة وسائر المنظمات الدولية. وربما كان ذلك رهبةً من الدولة العظمى، أمريكا، التي تقود الحرب على الإرهاب منذ أحداث ١١ أيلول المُنكرة، مع الاستنثار بحقّ تعريف الإرهاب

على هواها. فحكمت، بلسان رئيسها، على تنظيمات فلسطينية تتصدّر الانتفاضة بأنّها حركات إرهابية، وهي إذ لم تُميّز بين مقاومة الظلم والاحتلال وبين الإرهاب صنّفت الانتفاضة الفلسطينية ظاهرة إرهابية. لا بل هي في واقع الحال ميّزت بين المقاومة والإرهاب على وجه معكوس فوضعت المقاومة الفلسطينية في خانة الإرهاب وبرزت ساحة إسرائيل ورئيس وزرائها شارون الذي يُعدّ أفظع إرهابي في العالم في العصر الحديث، لا يُباريه في ذلك إلا هتلر. لعل قمع الأنظمة العربية التظاهر لنصرة فلسطين جاء مُسايرةً للدولة العظمى التي أرهبت هذه الأنظمة منذ ١١ أيلول تهديداً ووعيداً. ولا مشاحة في أنّ أميركا، إذ قرّرت التحالف مع أفظع إرهابي في التاريخ المعاصر، إنما قرّرت عملياً التحالف مع الإرهاب تحت عنوان الحرب على الإرهاب.

قد يكون القمع سبباً لغياب الشارع العربي عن أحداث فلسطين، ولكنه قطعاً ليس السبب الوحيد. فلطالما تحدّى الشارع العربي سطوة حكامه في مثل هذه المناسبات وخرج عن إرادتها ولو إلى حين قبل أن تهوي عليه هراوة القمع. وبين الحكّام العرب من لا يُساير أميركا في موقفها من فلسطين. وفي بلد كلبنان تكثُر فيه الحرية لم يردع الجماهير قمع السلطة يوماً إذا ما قرّرت التظاهر. مع ذلك فالشارع اللبناني شبيه ساكت على ما يدور في فلسطين من فواجع. فما هو التفسير إذن؟

قد يكون السبب في حقيقة تعلّنها إبان الأزمة الوطنية الدامية التي عصفت بلبنان على امتداد خمسة عشر عاماً، وهي أن من طبيعة البشر أنّ الإنسان، إذا واجه مشكلة وقضية في آن معاً، غلبت عنده المشكلة على القضية في أحيان كثيرة. إذا صادفت يوماً أمماً تبحث عن قوتٍ لطفلها فلا تسلّها كيف الوصول إلى تحرير القدس. فهاجس القوت لولدها يبقى هو المُسيطر. والشعب اللبناني، كما شعوب عربية أخرى تُواجه مشكلة في حياتها ومعيشتها من جرّاء أجواء الفقر والتخلّف والكبت التي تطوّقها، ربما صرفت مشكلتها اهتمامها عن قضيتها القومية. فحريٌّ بها أن تتظاهر لتبديد تلك الأجواء. هذا الواقع قد يكون سبباً لغياب الشارع العربي، ولكنه قطعاً ليس كل السبب. فما مات في نفس

المواطن العربي إحساس بقضاياها الوطنية والقومية، على قسوة الظروف التي يعانيها ، وذلك بدليل أنّ الشارع العربي هبّ في تظاهرات عارمة انتصاراً لفلسطين في بداية عهد الانتفاضة ولم يكن آنذاك أحسن حالاً ممّا هو اليوم.

لعل بعض السبب هو في البلبلة التي أحاطت بظروف الانتفاضة من جراء التخبُّط الذي أصاب مواقف القيادة الفلسطينية. فمن يقرأ تصريحات رئيس السلطة الوطنية السيد ياسر عرفات عن الإرهاب الفلسطيني، ومن يُطالع أخبار احتجاز السلطة الفلسطينية لبعض رموز الانتفاضة، ومن يُتابع افتتاح بعض القيادة الفلسطينية على المسؤولين الإسرائيليين بصورة مُبتذلة أحياناً، لا بُدّ أن يُصاب بالبلبلة والارتباك. لم يَعدّ المواطن العربي يدري من وما ينبغي له أن يدعم تحت شعار مساندة الانتفاضة الفلسطينية.

إنّ قيادة الانتفاضة المباركة والحال هذه مدعوّة اليوم لإعادة صياغة مواقفها من التواصل مع المسؤولين الإسرائيليين ومن قضية التسوية المنشودة وسقفها وشروطها. بعبارة موجزة، لقد تباينت المواقف بين السلطة الفلسطينية وبعض قيادات الانتفاضة، ممّا أضفى على القضية في مضمونها وأبعادها غشاء من الغموض واللبلة والتخبُّط. فلا بُدّ من إنقاذ القضية ممّا علق بها من تناقضات وذلك بإعادة تعريف أهداف المرحلة وتأكيد ثوابت القضية الفلسطينية بحيث يكون المواطن العربي على بيّنة لا مرأى فيها من القضية التي يُساندها في هذه المرحلة. إنّ المواطن العربي في حاجةٍ إلى أن يُدرِك ما يدعم ومن يدعم في ظل المتغيّرات التي طرأت على سياسة السلطة الفلسطينية تحت ضغط الأحداث المُفجعة التي تدور في فلسطين، وتحت وطأة الضغوط الهائلة التي تتعرّض لها هذه السلطة من الخارج.